مـــكة والعقلية القريشية ودورهما في التطور التجاري لقبيلة قريش قبل الإسلام

م.م. صافي نايف عبد محمد التميمي

المديرية العامة لتربية ديالى

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين ومن دعا بدعوته الى يوم الدين ، تعتبر الدراسة في مواضيع تاريخ العرب قبل الإسلام من الدراسات ذات الطابع الخاص لان هذه الفترة من تاريخ العرب هي من الفترات التي حضيت بالكثير من التغيرات سواء كانت السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وخصوصا مكة المكرمة باعتبارها بيت إبراهيم الخليل (عليه السلام) الذي كانت تقصده القبائل العربية لأسباب مختلفة يأتي في مقدمتها الحج والتجارة ، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الموسوم ((**مكة والعقلية القرشية ودورهما في التطور التجاري لقبيلة قريش قبل الاسلام**)) خصوصا أذا علمنا أن حياة العرب في جاهليتهم هي حياة قبلية فيها الحروب وتقوم على الغارات وعلى مغانمها كان يعيش بعض العرب ويرون أن الشرف شي يمكن أن يقوم به العربي وهو الدفاع عن الذمار والأخذ بالثار ، وفي خضم كل هذه التحديات الكبيرة والواسعة والكثير كان لموقع مكة وأهميته الدور الفاعل في بلورت الأفكار وتعزيز موقف القبيلة ، وخصوصا أن قبيلة قريش احتلت أهمية كبيرة في الإخبار والروايات في عصر ما قبل الإسلام وهي أصبحت في عهد قصي صاحبة الحل والعقد وراعية الحل والحرم وان القبائل العربية كانت تنظر أليها بعين الكبر ، وتعقد تصرفاتها معها على أساس ما تمليه عليها مصالحها من جوانبها المختلفة ، لذلك بحثنا أولا موقع مكة وارتباط ذلك ببناء الكعبة الشريفة وان مكة أصبحت محجاً للقبائل العربية ومما عزز ذلك الموقع التجاري المهم هو وقوعها على الطريق التجاري العربي وعرجنا بشي من التفصيل على الأقوام التي سكنت مكة قبل قريش ولكن هذه الأقوام لم تستثمر ذلك الموقع بشكل امثل ويمكم أن يكون ذلك الأسباب من أهمها عدم توفر عوامل التطور وكذلك عدم وجود شخصية قوية يمكن أن تتولى القيادة وتتصدى للزعامة ، ورأينا كيف أن ملامح ذلك التطور

والتميز بدأت تتضح في عهد قصي بن كلاب ووصوله الى صدارة القيادة والزعامة ، وبينا الجهود التي بذلها أبنائه من بعدهِ في تطوير العلاقات التجارية على الصعيد الداخلي ثم بعد ذلك بدوا يتطلعون الى الخروج بتجارتهم الى المناطق المجاورة . ثم بينا كيف استطاعت قبيلة قريش أن توظف موقع مكة المهم في خدمة مصالحها التجارية وكيف تمكن العقلية التجارية القرشية أن تحصل على عدد مهم من الامتيازات في عقد الإيلاف مع المناطق المجاورة لها والقبائل العربية التي تسيطر على طرق القوافل التجارية واتخذت الطرق الكفيلة من اجل الحفاظ على امن تلك القوافل وهي ترى فيها مكانتها وعزتها وهيبتها ، ولم تقف تلك العبقرية التجارية الى هذا الحد بل انطلقت تقنع الملوك والرؤساء في بلاد الشام واليمن وبلاد فارس بضرورة التعامل التجاري معها ، وبينا على سبيل المثال لا الحصر كيف تمكن أبو سفيان بن حرب من اختيار احد الحكماء والذين لهم دراية بأمور التجار للذهاب الى كسرى الفرس وإقناعه بأهمية التعامل التجاري مع قريش وتبادل المصالح المشتركة . من جانباً آخر بينة الدراسة كيفية التعامل التجاري لقبيلة قريش ما المناطق والبلدان المجاورة وغير المجاورة لها وكانت تستورد البضائع التي لها رواج تجاري في أسواقها وكذلك تصدر الى تلك البلدان ما تراه مناسب من المواد التي يمكن أن تحقق أرباح جيدة لها ، وقد وقفت قبيلة قريش بكل حرم وشدة مع كل من يحاول المساس بمصالحها التجارية وكانت تقول أنها سوف تقف مع المظلوم ضد الظالم الى أن تتمكن من اخذ الحق له من مغتصبيه وعرجنا أيضا على اهتمام قريش البالغ باتجار الوافدين أليها وتوفير الأمن والمأكل والمشرب لهم ، وهذا واضح جدا في شدة التصاق قريش بالتجارة واعتمادهم المطلق عليها ، فقد وردة بعض الروايات وحسب بعض المؤرخين أن قريشا اكتسبت اسمها من التقريش وهو بمعنى الاتجار ، أخيرا ارجوا من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في أعطاء صورة واضحة عن الحياة التجارية وموقع مكة المهم في حقبة تاريخية مهمة من تاريخنا العربي الذي أصبح الكثير من الباحثين والدارسين يبتعدون عنه

المبحث الأول : أهمية مكة التجارية :

بعد أن استقرت قبيلة قريش (١) في مكة وتمكنت من السيطرة على الحرم وأصبح لها تدبير شؤون البيت العتيق والحج ، وذلك عندما تمكن قصي بن كلاب (٢) من إقصاء قبيلة خزاعة والتي كانت تتولى أدارة أمور البيت والحج (٣) ولكن عند ذلك بدا عهد جديد وهو عهد الاتجار ،

ومما ساعد على ذلك ان تكون قبيلة قريش مؤهلة للوصول إلى مركز تجاري مهم ومرموق هو وجود مكة وما كانت تمثله بالنسبة للقبائل العربية في تلك الفترة وما زاد في أهميتها أكثر وقوعها على مفترق طرق بين مختلف الاتجاهات فأصبحت القوافل التجارية تمر بها من اليمن إلى الشام وبالعكس وهذا ساعد على تطور ونموا العناصر الأساسية في الدور التجاري لها ، إضافة الى أنها تقع في منتصف الطريق التجاري بين اليمن والشام وهذا الطريق يعتبر من اقصر الطرق بين منطقتين تجاريتين مهمتين (٤) ونتيجة لذلك ارتبطت المحطات التجارية والأسواق بشبكة مهمة من طرق المواصلات البرية ، وأهمها طريق اليمن والشام وهو الشريان الرئيسي الذي يربط بين سوقين مهمين واللذين يعتبران الأكثر استهلاكا للبضائع في المنطقة وهذا ما زاد من أهمية مكة التجارية وشهرتها التاريخية (٥) وهكذا أصبحت قبيلة قريش من أكثر القبائل العربية تحضرا في جزيرتهم وأنها مسؤلةٌ عن الحج واستضافة الحجاج وهذان السببان كان كافيين لان تتجه قريش للتجارة ، وهذا لا يعني أن التجارة لم تكن معروفة قبل ذلك في مكة لأنها كانت تمثل مركزا تجاريا مهما لمرور قوافل اليمنيين من سبأ وغيرها وهي متجهة الى بلاد الشام ويعود تاريخ هذا الخط التجاري الى فترة سبقت العهد الميلادي بقرون كثيرة ، بعد أن اضطرت الدولة السبئية في اليمن (٧٥٠ـ ١١٥ق م) الى افتتاح خطوط تجارية برية بين اليمن والشام تحاذي ساحل الجزيرة الغربي وتؤدي الى مكة والبتراء ومن ثم تتشعب تلك الطرق الى مصر والشام وما بين النهرين (٦) وكذلك تصل الى اليمامة (٧) والتجارة ا من المهن المهمة التي كانت العرب تتشرف بالعمل بها وهي مهنتهم ومهنة أجدادهم ، ومن هنا اكتسبت مكة شهرتها التاريخية (٨) .

وقد استثمر التجار من أهل اليمن موقع مكة التجاري كمحط للقوافل التجارية من أيام المعينيين الذين حاولوا أن يصلوا الى ابعد المناطق ويوسعوا نشاطهم التجاري ونفوذهم الاقتصادي والسياسي في منطقة شمال الحجاز حيث وصلوا الى عاصمة دولة الأنباط وهي بطرا ، وعندما جاء السبئيين والحميريين كذلك اهتموا بهذه المحطة ، وقد رافق ذلك بناء بيت الله الحرام الكعبة من قبل نبي الله إبراهيم الخليل (عليه السلام) حيث تحولت مكة في عهده من وادي مقفر وصحراء قاحلة ، الى منطقة استيطان وقد سكنتها عدت أقوام منهم العماليق والجراهمة وأقواما أخرى من جنوب شبه الجزيرة العربية ولكن السيادة كانت لجرهم التي أخذت ضريبة العشر من التجار الوافدين الى مكة (٩) وهذا يؤكد لنا وجود أسواق تقوم على أساسها المعاملات والمبادلات التجارية ، وخوصا أذا علمنا أن القوافل التجارية كانت بحاجة الى تقديم الخدمات من الأكل والشرب والمنام . وقريش ترى ان الجاه والسيادة يكمنان بالعمل في التجارة ، وان من لم يمارس هذه الصناعة فليس بشى ، ولكن رغم ذلك لا توجد معلومات كافية عن العمليات التجارية التي كانت تجري في عهد الجراهمة وخزاعة ولا عن الأسواق التي كانت تعقد في تلك

الفترة ، واحسب أن السبب في ذلك هو بساطة تلك العمليات التجارية وهي في مراحلها الأولى وعدم بروز شخصية قوية تقود وتوحد هذه القبائل وقيادتها ، والذي يدعم قولي هذا أن هذه العمليات بدأت تتضح تدريجيا عندما تولى قصي بن كلاب السيادة ، حيث بدأت مكة تمر بمرحلة جديدة وقد انعكس هذا على مجمل نواحي الحياة فيها مما تطلب القيام باجرات أخرى أهمها بناء دار الندوة (١٠) وقد زادت العمليات التجارية في عهد قصي بن كلاب وأصبحت مكة محور عملية التبادل التجاري ويقول اليعقوبي في ذلك " أصبحت قريش لاتتجار الا مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ ، وفي الأشهر الحرم لاتبرح دارها ولاتجاوز حرمها " (١١) وكانت هذه التجارة داخلية والذي أصبح اغلب القريشيين يعملون بها وقد ذكر الثعالبي ذلك بقوله " وصاروا بأجمعهم تجارا خلطاء " (١٢) وادى استقرا مكة امنيا الى زيادة القوافل التجارية الوافدة اليها والتي وجدت أمنا وراحة ، والحال هذه جعلت قبيلة قريش تنظر الى ما حولها وخصوصا اذا علمنا ان هذا التحول المهم في أرضهم الجدباء ذات المياه الشحيحة ، وبعد أن عرفوا المنافع التجارية التي يمكن أن يحصلوا عليها بدؤ يفكرون بالخروج في تجارتهم الى خارج مكة وقد تهيأت هذه الظروف بعد وفاة قصي بن كلاب وتولي ولده هاشم الزعامة ، وخصوصا أذا علما أن الوقت الذي تصدى هاشم فيه للزعامة كانت وقت شدة وصراع بعد انهيار عدد من المراكز التجارية والحضارية في أطراف الجزيرة العربية الشمالية وحدث هذا بسبب الحروب البيزنطية الفارسية ، ومن جانبٍ آخر ضعف نفوذ الغساسنة في بلاد الشام والمناذرة في العراق ، هذه العوامل المهمة والبارزة ساعدت على تحول قريش من وسيط في العملية التجارية الى تجار يسيرون القوافل (١٣) وقد عمل هاشم بن عبد مناف على فتح أبواب الخير على قريش وهو أول من خرج خارج مكة للتجارة عندما حصل على الإيلاف (*) من قيصر الروم ، وكذلك حصل أخوته على ايلافات أخرى من نجاشي الحبشة ، وأقيال اليمن وكسرى العراق وهكذا تحول التجار المكيون من تجار محليين الى تجار عامين وقد وظف ذلك كله وقد هنا الإيلاف الى حماية خطوط التجارة (١٤) وأهتم القريشيون كثيرا بجمع المال والتكسب وحبهم له وفي ذلك يقول الثعالبي ومن أمثالهم وأمثال تجارهم " النقد صابون القلوب ، وهم يعنون بذلك انه يغسل من خامرها من الموجدة بطول المطل " (١٥) ويتضح لنا مما سبق أن مكة كانت مركزا تجاريا مرموقا في العصر الجاهلي ، ولها صلاة تجارية قوية مع العراق وفارس وكان تجارها يفدون الى أسواق الحيرة وفارس ليبيعوا حاصلات الحجاز وسلع اليمن ، والى جانب ذلك كانوا يزورون ملوك تلك البلدان ويقدمون لهم الهدايا ويقبلون هداياهم وأعطياتهم وألطافهم ، ومقابل ذلك كان تجار الحيرة وفارس يقدمون الى مكة بتجارتهم ويعقدوا صلاة تجارية مع تجارها ، أما ملوك الحيرة فقد وصلت لطائهم كل عام الى سوق عكاظ (١٦) وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً .

المـبحث الثـاني : عقلية قريش التجارية :

ان المتتبع لنشاط العقلية التجارية القرشية يلاحظ ان التجارة سيطرة عليها سيطرة واضحة للعيان ويبدو ذلك جليا في تحديهم لرسول الله محمد (صلى الله عليه واله) في طرقة تفكيرها ، وحدثنا القران الكريم عن الكثير من الإشارات المهمة ، وهو يخاطب تلك العقلية فالآية الكريمة تقول ((**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون**)) (١٧) وقد نقل أصحاب التفسير عن هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى وحده يستأثر بالنفع وان المغير هو الله سبحانه وتعالى وان مسالة الاستعانة بالإنسان يجب أن تكون على المستطاع وليس على الأمور غير القادر عليها ، وهناك أشياء تختص بالله عز وجل وهي الأشياء التي لايمكن أن يعملها ألا الله سبحانه ولما كان هؤلاء السائلون لايسعهم فهم هذا السبب على مالهم من الإفهام البسيط ، أمر الله سبحانه رسوله (صلى الله عليه واله) أن يكلمهم بما يسعهم فهمه ، وهو أن العلم بالغيب يهدي الإنسان الى الخير والشر والعادة تأبى أن يعلم احد الخير والشر ويستهدي الى موقعهما ثم لايستفيد من ذلك لنفسه فالإنسان أذا لم يستكثر من الخير ولم يرق من الشر كيف يعلم الغيب (١٨) وقال أهل مكة ((يامحمد ألا تخبرنا بالسعر الرخيص قبل أن يغلوا فنشتري فنربح ، وبالأرض التي تريد أن تجدب فنرتحل منها الى ما قد أخصب)) (١٩) وقد قرب لهم القران الكريم المعاني بتصرفاتهم اليومية وما تفيض به حياتهم ويضرب لهم الأمثال على الضلالة والهدى والمؤمنين والكافرين من التجارة نفسها ، وهو بذلك يحاكي عقليتهم التجارية ويستخدم لفضي الشراء والبيع في مدح من سعى الى ابتغاء مرضات الله فيقول ((**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَاد**)) (٢٠) ويقول عز من قائل ((**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم**)) (٢١) وكانت العقلية التجارية القرشية على جانب كبير من الحذق والدراية التجارية وهي مسيطرة على القوم وقد وفرة لهم المعرفة الكافية بالسوق وأمر العرض والطلب ، لذلك برز العديد من الشخصيات القرشية ذات العقلية التجارية والمهارة الفائقة في أمور التجارة ومنهم عبد الرحمن بن عوف (٢٢) وقد كان عارفا بالسوق وأمورهُ والتجارة وشؤونها معرفة عالية ومع هذه المعرفة قوة الشخصية والثقة بالنفس بحيث لا يخسر في صفقة تجارية وهذا النجاح أدى به أن يقول الى أصحابه (لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا) (٢٣) وكذلك عندما هاجر الى المدينة المنورة زاد في صقل عقليته التجارية بعد أن ترك كل ما يملك وراءه في مكة و

أصبح ليس له الا عقليته التي يعول الكثير عليها وعندما أخى رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري (٢) وعندما طلب أليه سعد بن الربيع أن يقاسمه في ماله وحتى زوجته رفض وقال له ((بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني على السوق فخرج أليه فأصاب شيئا)) ثم بدا عملياته التجارية (٢٥) ومثل هذه العقلية التجارية هي التي مكنت قريشا أن تجعل أرباحها في بعض سفراتها مضاعفة ، وكانت القافلة التجارية التي تصدا لها المسلمون وهي سبب غزوة بدر ، ويقودها أبو سفيان بن حرب نحو ألف بعير ، وقيل أنهم كانوا يربحون بكل دينار دينارا (٢٦) لذلك كانت قريش حريصة كل الحرص على أدامت هذه العلاقات ومكانتها المهمة بين القبائل العربية وأنها لا تسمح لأي حدث من الأحداث الإخلال أو أضعاف هذا المجهود الكبير أو المساس به وهي شديدة حريصة كل الحرص على سمعتها التجارية وتعاملها مع الآخرين حتى لا تتأثر صورتها التجارية في عيون الناس ، لذلك يمكن القول وبكل ثقة أن حلف الفضول هو في بدايته حلف تجاري بمقدماته ونتائجه لحفظ سمعة قريش وساعد على أزدهار الأسواق في مكة وأضفى عليها ستار من الاستقرار والأمن وحماية الضعيف ، بعد أن كان الأمن فيها يتعرض في الكثير من الأحيان الى الخطر ، والاعتداء على حقوق الضعفاء وفي مرات عدة كادت تزعزع ثقة القبائل والأعراب و تجار المناطق المجاورة بأسواق مكة ، وقد استثمرت قريش هذا الحلف وتعاقدوا على أن يكون مع المظلوم يؤد أليه حقه ، فلا يبقى في مكة مظلوم وكذلك دخل معهم سائر الناس من يقطنوا مكة ، وقد تمكن بهذا الحلف لمصالحها التي تعتبر من أهمها التجارة (٢٧) وبقيت حريصة على سمعتها التجارية وأن تبقى علاقاتها القبيلة مستمرة ومستقرة خصوصا مع القبائل التي تقع بلادها على طرقها التجارية حتى تضمن سلامة عيرها ، وهي بذلك تحافظوا على سمعتها التجارية وان تبقي علاقاتها القبلية مستمرة ومستقرة خصوصا مع القبائل التي تقع بلادها او مناطقها في طريق قوافلها التجارية وهي بذلك تضمن سلامة عيرها ذاهبة وآيبةً ويتضح لنا ذلك جليا في قول العباس بن عبد المطلب (رض) لقريش عندما ضربت أبي ذر الغفاري (رض) عندما أعلن أسلامه " ويلكم ألستم تعلمون انه من غفار وان طريق تجارتكم عليهم) (٢٨) وعندها تركوه فقد ولم يتعرضوا له بأذى بعد ذلك ، وهنا ندرك أهمية موقع التجارة عند قريش ونتبين كذلك مدى اعتمادهم عليه وحرصهم على أدامتها ، وفي موقفاً أخر عندما علمت قريش أن عبدالله بن جحش تعرض لقافلة العلاء الحضرمي في منطقة النخيلة (٢٩) ، وعندها كان ردهم بليغ وقوي (٣٠) واهم ما كانت قريش تخشاه هو أن تحارب بتجارتها وان تتعرض قوافلها التجارية الى الخطر ، والعقلية التجارية القرشية كانت دائمة التأكيد على ضرورة الحفاظ على هذه المكاسب المهمة وعدم فقدانها .

وساعة تعرض المسلمون لعير قريش ورصدوا لها السواحل وهي طريق تجارتهم وبذلك وقف صفوان بن أمية يعلنها صراحة أمام الملأ ويظهر امتعاض قريش من ذلك بقوله " أن محمد وأصحابه قد عورو علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسكن ، وان أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها بقاء " (٣١) ومن هذا النص نتبين أهمية التجارة عندهم وكيف لا وهي عصب اقتصادهم ومكانتهم رهن بها ، وعنها كان لابد من وجود طريق بديل أخر بعيدا عن المسلمين فختارو طريق العراق خلال نجد وخرجت عيرهم وهي مثقلة بالذهب والفضة وساعة وصول خبرها لرسول الله (صلى الله عليه واله) أرسل سرية بقيادة زيد بن حارثة فهاجم القافلة وغنم العير واسر الدليل وهو فرات بن حيان وفيها أبو سفيان وقد هرب ومن قتل فيها كعب بن الاشرف ، وهذه الغزوة تدعى غزوة القِردةَ نسبة الى ماء من مياه نجد ، ومن جانبا آخر حرصت قريش على حسن العلاقات مع البلاد المجاورة وخصوصا التي تعتمد على منتجاتها ، واتخذت جميع السبل الكفيلة لإبقاء تلك العلاقات جيدة معها مهما كان الثمن وانطلاقا من ذلك أخذت موقفا حازما من عبدالله بن جدعان عندما قام بطرد مائة ناقة لكلاب بن ربيعة ، فما كان من قريش ألا أن أرادت قتله وذلك في قوله " أن قريشا أتمرت بقتلي لئلا اجني عليهم الجرائر فيطلبون بسببي وهم تجار لا يستغنون عن بلد " (٣٢) وفي بعض الأحيان ذهبت قريش الى ابعد من ذلك بكثير من اجل تامين تجارتها مع اليمامة ، فقد كتبوا الى رسول الله (صلى الله عليه واله) وهم أعدائه والمعارك مستمرة بينهم يسألونه بصلة الأرحام التي بينهم أن يكتب الى ثمامة ابن اثال أن يطلق أليهم أحمال الطعام بعد أن منع الحنطة عنهم ولا تذهب الى مكة بعد أسلامه (٣٣) ونتيجة لهذه الأحداث التي مرت بها قريش واقصد فترة ما قبل الإسلام ، شعرت قريش انه لابد لهم من أبرام عقود وأحلاف مع تلك البلاد سواء التي تتجار معها أو التي تمر قوافلها التجارية عليها واتخاذ الخفراء لتحميها من ذئاب العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وهؤلاء كانوا لايأمنون على أهل الحرم ولأغيرهم ، ومن جانبٍ آخر هناك بعض الأشخاص والقبائل الذين لا يحترمون الشهر الحرم ولا يرون أن لها حرمة ولا للشهر الحرام عندهم حساب . ومن ابرز هذه القبائل قضاعة وخثعم وطي بينما سائر العرب يحجون للبيت ويقدمون الهدايا والنذور ، والحال هذه رأت قريش أن الحل الأمثل هو في عقد الإيلاف ، وقصته معروفة مشهورة لا أريد الخوض في غمارها وتفاصيلها لأنها تحتاج الى بحثا مستقلا ، ولكن من أهم خصائص الإيلاف هو أن قريش أشركت رؤساء القبائل العربية في القوافل التجارية وجعلت لهم قسما من الأرباح ونتيجة لذلك ربط هاشم بن عبد مناف وهو مهندس الإيلاف وصاحبه الأول مصالح القبائل العربية الاقتصادية مع مكة ، وأيضا استعمل الإدلاء للقوافل

التجارية من القبائل العربية المجاورة والتي تمر بها قوافلهم وبذلك تضمن سلامة هذه التجارة ، وعززت قريش إيلافها بعدد من المصاهرات مع القبائل العربية لتمتين علاقاتها وأدامتها واستمرار تدفق أنواع البضائع الى أسواق مكة ، ومن أهم ايجابيات هذا الإيلاف هو تحول التجارة القرشية بجهود هاشم وإخوانه من عمل فردي الى عمل جماعي بحيث يشترك في رأس مال القافلة جميع أهل مكة وعلى هذا يكون الربح والاستفادة للجميع ، مما يترتب على أن يقوم الجميع من أهل مكة الأغنياء والفقراء بالدفاع عن مكة وتجارتها لأنهم جميعا شركاء في راس المال ، ويوضح ابن حبيب صورة هذا التكافل الاجتماعي الرائع بقوله " أصحاب الإيلاف من قريش رفع الله بهم قريشا ونعش فقرائها ، وان قريش كانت تتفحص عن حالة الفقراء ويسدون خلة المحاويج " (٣٢) وهكذا أصبحت الأهمية التجارية عند قريش كبيرة جدا وبدأت تدفع للقبائل العربية الأموال مقابل خفارتها وضمان سلامة طريق تجارتها وهذا ما يعرف بضمان الطريق ، مقابل ذلك كانت قريش تحمل لهم بضائعهم وعبر ابن خلدون عن ذلك أجمل تعبير حيث قال " وأما من على الطريق ، فإيلافهم على أن تحمل قريش بضاعتهم والاكراء على أهل الطريق " (٣٣) وهناك مسالة هامة أخرى في العقلية التجارية القريشية وهي مسالة قيادة القوافل التجارية حيت تسند الى الشخصيات البارزة والمعروفة بالثقة والأمان وحسن التدبير فقد أسندت خديجة بنت خويلد (رض) قيادة قوافلها التجارية الى محمد بن عبدالله (صلى الله عليه واله) وأتاها بأرباح مضاعفة وأيضا عرف عن أبي سفيان بن حرب حسن قيادة القوافل وخصوصا أذا كانت القافلة تذهب الى بلاد لا خبر لهم ومعرفة عن أهلها أو طرقها التجارية ، وقد ذكرنا في موضعا متقدم من هذه الدراسة كيف نجح أبو سفيان عندما ذهب بتجارة الى بلاد فارس واخذ معه غيلان بن سلمة الثقفي والذي نجح عقد تجارة مع ملك الفرس ، وقد زادت قريش من حرصها على قوافلها التجارية فهي لم تكن ترسلها ألا بعد التشاور في مسالة الربح والخسارة وسلامة الطرق ومسير القافلة ، لذلك شهدت دار الندوة الكثير من السجالات وقد دوت أصوات عقلائهم التجاريين وبعد ذلك يتم إصدار القرار النهائي في من يقود القافلة وأين تتجه ، ويمكن اعتبار ذلك احد جداول الأعمال التي تناقش في دار الندوة التي يتشاور فيها قريش في عقد الألوية في الحرب ، ولا ينكح رجل من قريش ألا فيها ولا تخرج عير عن قريش ألا منها ولا يقدمون ألا نزلوا فيها (٣٤) وكان من نتيجة هذه العقلية الفذة وثمرة التدبير التجاري أن أصبحت مكة مزدهرةً اقتصاديا وكثرت فيها الأموال وزاد حجم التجارة وقد ذكرت بعض الإحصائيات التي تبين ذلك أن هاشم بن عبد مناف عندما ذهب بقافلة تجارية ومر على يثرب تزوج من سلى بنت عمرو وهي من بني النجار صنع طعاما كثيرا وكان معه من قريش وأشرافها أربعين رجلا ، وكذلك عبد الله بن جدعان الذي كان يرسل وحده ألفي بعير الى بلاد الشام وهي تحمل البر والشهد والسمن ، ومن كبر حجم هذه القوافل يمكننا أن

ندرك ما تدره على قريش من أرباح وأموال وهي بالتأكيد كبيرة جدا أذا ما قورنت بقياس أموال ذلك الزمان ، حيث يقول حكيم بن حزام " كنت اربح أرباحا كثيرة فأعود على فقراء قومي ونحن لا نريد شيئاً ، أنما نريد ثراء الأموال والمحبة في العشيرة " (٣٥) ومن اجل زيادة الموارد التجارية والمالية ابتدعت العقلية القريشية خطوة جديدة أخرى وهي تهدف الى تصريف بضائعها التي تدخل الى مكة وتنشيط السوق أيام موسم الحج وتوافد القبائل العربية أليها ، لذلك فرضت على العرب قاطبة أن يطرحوا زواد الحل أذا دخلوا الى داخل الحرم وان يخلعوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم وهي عدة أنواع أما عن طريق الشراء وأما تعطى هبة أو عارية أي تسترجع بعد ذلك ، ثم زادو على هذا الأمر أكثر عندما فرضوا على الوافدين أليهم أن لا يأكلوا من الطعام الذي يجلبوه معهم من الحل الى الحرم (٣٦) وهذا حقق لهم مكاسب مالية جديدة فالحاج الذي يبتاع الثياب الجديدة من سوق مكة يودي الى تنشيط سوق الأقمشة وهذا أدى الى قيام محلات في مكة لبيع الطعام والأغذية ، وهنا يمكننا أن ندرك قوة العقلية التجارية القرشية والتي لعبة دورا مهما في البحث عن مصادر الأموال وبناء الاقتصاد ورفده بموارد مختلفة وبناء علاقات قوية حسب ما تمليه عليها مصلحتها التجارية .

المبحث الثالث : تجارة قريش مع الأمم الأخرى :

لمكة علاقات تجارية قبل أن يصبح القرشيون هم أصحاب السيادة وذلك في عهد قبيلة خزاعة وعندما سيطرة قريش على مكة سياسيا واقتصاديا ، وقد ذكرت الروايات التاريخية أن قريش كانت تتجر قبل أولاد عبد مناف الأربعة ولكن في مكة لاتبرحها ولا تحيد عنها ، وفي كثير من الأحيان تبيع تجارتها مع من يخرج من الأعاجم الى المناطق المجاورة وابعد ما تصل أليه تجارتها هي الأسواق القريبة من مكة مثل سوق عكاظ وذي المجاز وغيرها واستمرت التجارة القرشية على هذا الحال الى أن جاء هاشم بن عبد مناف (٣٧) ولم يعجبه الحال الذي وصلت أليه التجارة وتراجع المستوى التجاري وتردي الوضع ألمعاشي للكثير من سكان مكة على الرغم من المكانة التي كانوا يحظون بها بين القبائل العربية وما لهم من حقوق الرفادة والسقاية ، ومن الجدير بالإشارة اليه هنا أن الوظائف الإدارية في مكة ارتبطت بالهدف الذي انشات من اجله الكعبة وهو هدف ديني وبما أن العرب حالهم حال الشعوب الأخرى قبل الإسلام وهم يمنون أن هناك قوى عليا لها عليهم سلطان وحكم (٣٨) وقد كانت الوظائف عندما كانت قبيلة خزاعة تتولى أمور البيت هي ولاية البيت وحجابته والسقاية بينما كان لمضر الأجازة من عرفة الإفاضة بالناس عند النحر الى منى والنسيء في الأشهر الحرم ، وبما أن العلاقة التجارية في وادي مكة كانت تعتمد على التفاعل مع القبائل الوافدة أليها ، وكانت بحاجة الى تطوير مستمر وهي كانت في بداياتها الأولى حيث أدخل عليها عمرو بن لحي وهو زعيم قبيلة خزاعة وظائف جديدة وقال الازرقي (هو

أول من اطعم الحاج في مكة وعم في تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة أثواب من برود اليمن) (٣٩) ولكن عندما تولى قصي بن كلاب زعامة مكة كانت الوظائف الموجودة هي الحجابة والسقاية وعمارة المسجد و الرفادة وبقيت الوظائف بقيت للقبائل الأخرى وبما أن قصي كان حديث عهد بالزعامة له يرد التنازع مع القبائل العربية الأخرى وهي سياسة حكمية حتى خزاعة التي انتزع منها السيادة لم يخرجها من مكة بل بقيت في منازلها ، على كل حال أن مكة قد انتقلت في عهد قصي نقلة حضارية كبيرة جدا في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وكذلك الجانب الوظيفي و الإداري (٤٠) أن هذه الأهمية و المركز الاجتماعي لقريش وما تتمتع به من مكانة بين القبائل العربية أصبحت تتطلع الى أن تمتد خارج مكة ووجدت أن التجارة هي خير وسيلة للوصول الى هذا الهدف أو هذه الغاية . لذلك رأى بنو عبد مناف أن يضربوا بالأرض نحوا الأمم الأخرى ، فأقاموا المعاهدات وأنعشوا تجارة مكة ، وأتعست تجارة قريش في الجاهلية وكثرت أموالها فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منه في الجاهلية و الأسلام ، وما يؤيد هذا القول ما ذكره ابن عباس (رض) (والله لقد علمت قريش أول من أخذ الأيلاف و أجاز لهم العبير لهاشم ، والله ما شدة قريش رحلاً ولا حبلاً بسفر ولا أناخت بعير لحضر ألا بهاشم) (٤١) وهكذا انطلقت قريش بتجارتها تجاه المناطق الأخرى وكان أول هذه المناطق هي :

أولا : التجارة مع بلاد الشام :

تعد بلاد الشام أول المناطق التي انطلقت أليها التجارة القرشية الخارجية وقد وردت وقد ورد ذكر هذه الرحلات في القران الكريم (٤٢) و ذكر الطبري أن قريش تاجرة مع بلاد الشام في فصل الشتاء ، وهذا ما يدلل لنا أن العملية التجارية مستمرة طيلة أيام السنة وعلى حسب ما تمليه المصلحة الاقتصادية والحاجة الى البضائع ومن أهم المواد التي يتاجرون بها القمح و الدقيق و الخمر و الجواري و المنسوجات بأنواعها المختلفة ويقصد بها المصنوعة من الكتان و القطن و الحرير و كذلك السيوف و الديباج و الجلود و المصنوعات الفضية وأيضا القناديل الزيتية أما بالنسبة الى الأسواق التي تجلب منها هذه البضائع فهي متعددة منها بصدى وسوق دير أيوب وغيرها (٤٣) ومن ذلك يتبين لنا أهمية العلاقات التجارية وأنها كانت مستمرة طيلة أيام السنة ولا تقتصر على موسم معين ، وقد اشتهر عدد من الشخصيات القرشية التي كانت لها الدور البارز في تطوير العلاقات التجارية وقيادة القوافل التجارية ومن أبرزهم هاشم بن عبد مناف والذي يعتبر أول من تاجر مع بلاد الشام وقد وصل بتجارته الى غزة و توفي بها ، وهناك رواية أخرى تقول أنه وصل بتاجرته الى أنقرة (٤٤) ومنهم سعيد بن العاص والذي يلقب أحيحة وكذلك والد الخليفة الثالث عثمان وهو عفان بن العاص وقد مات في بلاد الشام ، وحضي بعض التجار بمكانة كبيرة لدى قيصر الروم ومنهم عثمان بن الحويرث الذي زعمه القيصر وأعطاه كتب يوليه

على قريش كلها ولكن قريش رفضته وبسبب هذا الرفض حُبسَ عدد من أشرافهم في بلاد الشام وهم كانوا في قافلة لهم يقودها هشام بن شعبة الملقب أبو ذؤيب (٤٥) وفي عهد قريب من الإسلام تاجر أبو طالب (رض) ومعه رسول الله (صلى الله عليه واله) وأبو بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) ، وهناك من القريشيين من امتلك ضياع في بلاد الشام مثل أبي سفيان بن حرب وضيعته في البلقاء (٤٦) ومن جانبٍ أخر كان التجار الروم من بلاد الشام يصلون بتجارتهم الى مكة عن طريق البر والبحر وقريش تعشرها وهذا مقابل قيام الروم بتعشير التجارة القريشية عندما تصل الى بلاد الشام (٤٧) .

ثانياً : التجارة مع العراق :

لقبيلة قريش علاقات تجارية واسعة مع أهل العراق وخصوصا الذين يسكنون عند أطراف الجزيرة العربية وهي قريبة مع العراق ويأتي في مقدمة هؤلاء عرب الحيرة ، حيث لهم علاقات تجارية واسعة في عهد النعمان بن المنذر الذي وصلت لطائمه التي تحمل المسك والمنسوجات الى أسواق الجزيرة العربية ، وأول من قاد هذه القوافل الى العراق هو نوفل بن عبد مناف وقد توفي في منطقة السلمان في العراق ، وبموته ضعفت تجارة قريش مع العراق ولم تنهض ألا في وقت قريب من ظهور الاسلام وفي رواية نقلها الأصفهاني مفادها عندما خرجت جماعة من قريش يريدون تجارة الى العراق نهاهم أبو سفيان عن ذلك وقال أن علاقاتنا مع ملوك العراق في خطر وملكهم لم يأذن لنا في دخول أرضه والقدوم عليه (٤٨) من ذلك يتبين لنا ان التجارة مع العراق ورغم العقلية التجارية التي كان يمتلكها أبو سفيان لكنه يخشى التجارة مع العراق الأسباب منها خطورة الطريق التجاري الذي يمر في أراضي بعض القبائل التي لم تكن تحترم الأشهر الحرم وتغير على القوافل ومن أشهرها قبيلة طي (٤٩) وهم كانوا يرفضون جوار بعض التجار القريشيين وحمايتهم مثل الجوار الذي أعطاه هاشم الطائي الى الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس والذي كان يريد الحيرة بتجارةً له وعندما علمت طي بذلك الجوار أنكروه عليه (٥٠) ويبدو لي انو هذه أسباب كافية لضعف التجارة مع العراق في تلك الحقبة الزمنية لان الأمان في الطرق التجارية يعتبر العامل الأساس في سير القوافل التجارية وسلامتها . ورغم ذلك استمرت محاولات قريش لتطوير هذه العلاقات وتشير الروايات الى وصول الحكم بن العاص الى الحيرة وتسيير أبي سفيان للعديد من القوافل الى العراق ودخوله على كسرى ، هذا وقد استقر قسم من التجار في الحيرة ولم يرجع الى مكة ومات هناك مثل المسافر بن عمرو (٥١) . ومقابل ذلك وصل التجار العراقيون الى مكة من اجل الكسب والمال ويعتبر المسك والعنبر والجواهر من أهم المواد التي كانت تجلب من الحيرة الى مكة (٥٢) .

ثالثا : التجارة مع مـصر :

على ما يبدو ان العلاقات التجارية مع مصر لم تكن كبيرة وأنها لم تتعدى الأفراد القليلين حتى أن الروايات لم تذكر أسماء القرشيين الذين ذهبوا بتجارة الى مصر وإنما هناك ذكر روايات عامة فقد ذكر ابن سعد نصان أولهما " أن نفرا من بني مالك اجمعوا على الوفود الى المقوقس وأهدوا له الهدايا " (٥٣) وثانيهما " أن ابن عبدالله بن جدعان أتى مصر ببضاعة ورجع الى عكاظ " (٥٤) وذكر ابن هشام أن قوافل قريش التجارية وصلت الى المقوقس في مصر (٥٥) ومن أهم المواد والسلع التي كانت تجلب من مصر الأقمشة بأنواعها المختلفة ومنها ما يعرف بالبز المصري وأهل مكة يطلقون عليه القباطي (٥٦)

رابعا : التجارة مع بلاد فارس :

كانت هناك علاقات تجارية بين أهل مكة وملوك الفرس وذكر قسم من المؤرخين أن الأوائل من ملوكهم كانت تحج الى الكعبة وتهدي أليها النذور ، وان صلاة العرب التجارية بهم كانت قديمة جدا ولا يمكن تحديدها بتاريخ معين ، ولا يمكن النظر أليها من جانب واحد لتعدد جوانبها وان كل جانبا من هذه الجوانب يحتاج الى دراسة مفصلة ، وعندما استولى الفرس على اليمن آخذو يتدخلون تدخلا مباشرا في تجارة جنوب شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي يرسلون البضائع من العراق الى اليمن ، ويأخذون في مقابلها بضائع من أسواق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وقد شارك معهم ملوك الحيرة وآخذوا يرسلون لطائهم الى اليمن للبيع والشراء (٥٧) وقد انعكس ذلك على تجارة أهل مكة وأصبح له تأثيرا مباشرا عليهم بعد أن انتزع ملوك الفرس واللخميون من أيديهم قسطا من أرباحهم ومع ذلك التزم المكيون الحياد تجاه المعسكرين الفارسي والروماني ، والسبب في ذلك أن الانحياز الى احد المعسكرين سوف يودي بالنتيجة الى عرقلة تجارتهم مع الجانب الأخر ، وقد كان لهم تجربة وهي عندما استعان عثمان بن الحويرث الذي ذكرناه سابقا بقيصر الروم وقد أدى ذلك الى هياج قريش ورفضهم توليته . وقاد ذلك الأسود بن عبد المطلب هو من خطباء العرب في الجاهلية والناس في الطواف فصاح بهم قائلا " أن قريش لقاح لاتملك ولاتملك " (٥٨) وعندما سمعت بذلك قريش طردوا الحويرث وذهب الى الشام وبقي بها عند الحارث بن جبلة الغساني ، وقيل انه تنصر ومات هناك (٥٩) وعلى ما يبدو أن الرحلة التجارية الى بلاد فارس لم تكن رحلة كبيرة وجماعية مثل رحلتي اليمن والشام ولكن كانت على شكل قوافل تجارية صغيرة يبعث بها أصحابها متى يشاءون الى هذه البلاد ، وفي الكثير من الأحيان يرئسون هذه القوافل بأنفسهم ، وفي ضني أن السبب في قلة وصغر هذه القوافل يمكن أن يكون بعد المسافة ووعورة الطرق التجارية الى بلاد فارس لأنها تنطلق من مكة الى الحيرة في العراق ثم الى بلاد فارس وبهذا تقطع العراق من الغرب الى الشرق (٦٠) ويعد عبد الله

بن جدعان وهو من تجار و أثرياء قريش المعروفين ذهب في أحدى قوافله الى بلاد فارس و دخل على كسرى ، فأحسن وفادته عليه و أطعمه الفالوذج (٦١) فأعجب به وسأله عن كيفية صنعه فقيل له البر يدلك مع عسل النحل ، وقد أستحسن طعمه و قرر نقل صناعته الى مكة ، فبتاع غلاما نقل صناعته الى مكة ، و أمره أن يصنع الفالوذج ووضع الموائد في أبطح مكة على باب المسجد و نادى منادية ، ألا من أراد الفالوذج فليحضر الى مكة ، ونقل الاصفهاني رواية أخرى أن عبد الله بن جدعان نقل الفالوذج من نجران وكان أول من أدخله الى مكة (٦٢) وعندما كان أبو سفيان بن حرب كثير التجارة مع بلاد الشام و اليمن ، لذلك فكر في تكوين علاقات تجارية مع المعسكر الأخر ، وقاد قافلةً تجارية فدخل العراق ووصل الى الحيرة ثم بعد ذلك توجه الى المشرق الى بلاد فارس ، وعندما توغلوا في بلاد فارس دون أذن لهم في ذلك فأدرك أبو سفيان أن ذلك خطر عليهم و أن ملك فارس ملك جبار ، وعندما أختار أحد رجاله وهو غيلان بن سلمه ، و أمره بالخروج من القافلة فلما أراد الدخول الى مجلس كسرى لبس ثوبين أصفرين ، وجلس ببابه حتى أذن له فقال غيلان لست من أعدائك ، ولم أتيك جاسوسا لضد من أضدادك أنما جئت بتجارة تستمع بها فان أردتها فهي لك وأن لم تردها و أذنت لي بذلك رددتها ، وعندما تكلم كسرى وسمع غيلان صوته سجد ، قال له المترجم لم سجدت ، فقال سمعت صوت الملك فسجدت أعظاما له فستحسن كسرى ذلك الكلام منه ، وعلى ما يبدو أراد كسرى أن يختبر ذكائه كتاجر وحرصه على بيع هذه التجارة فأمر له بمرفقه عليها صورة الملك وعندما أعطيت له ليجلس عليها وضعها على رأسه فستجهله كسرى وقال له لم فعلت ذلك أنما هي لتجلس عليها فقال اعلم ذلك و لكن عندما رأيت صورة الملك ، لم أستطع الجلوس عليها وحقها التعظيم فوضعتها على رأسي ، لأنه أشرف اعظائي وعندما أستحسن كسرى هذا الكلام من غيلان أشترى كل بضاعته منه وبعث معه من بنا له أطما بالطائف وهو أول بنا في الطائف (٦٣) وهنا ندرك أهمية العقلية التجارية القريشية ودورها في رعاية مصالح قريش وتجارتهم .

ـ وعندما سمع أبو سفيان بذلك أستبشر خيرا و أراد أن يركز على تجارة فارس و بدأت القوافل التجارية تسير أليها ، وقد وفد على كسرى و أهدى أليه خيلا و أدم فقبل الخيل ورد الأدم ، وكان من مصلحة كسرى أن تكون له علاقات تجارية ويتقرب من أهل مكة ويتاجر معهم ، لان مدينتهم تقع على طريق مهم للغاية من الناحيتين السياسية و التجارية (٦٤)

خامساـ التجارة مع الحبشة :

على الرغم من أن تجارة قريش أغلبها عن طريق القوافل التجارية البرية ولكن كانت لها أيضا علاقات بحرية عن طريق البحر الأحمر وخصوصا الحبشة وهي تنطلق مع ميناء جدة ، وهناك رأي يقول أن قريش لم تكن تعرف ركوب البحر وأنما كانت تستأجر سفن من مصر الحبشة

ويمكن أن يكون ذلك جانبا أخر من تقوية الصلاة التجارية مع جميع الأطراف لديمومة هذه العلاقات والحرص على تطورها و الحفاظ عليها (٦٥) وكانت لقريش تجارة بحرية تصل الى السواحل المكية السفن التجارية وفي رواية أبن هشام أن الكعبة سقفت من حطام أحد السفن الرومية التي تحطمت على الساحل (٦٦) وهناك رواية لابن حبيب يحتمل تفسيرها على وجهين ومفادها (أن سهيل بن عمرو قال لقريش : يا أهل مكة قد علمتم أني أكثر أهل مكة جارية (أي سفينة) في البحر وقتباً (٦٧) فأرادوا الصدقة) (٦٨) و يمكن لنا أن نفهم من هذه الرواية أمرين الأول هو أن سهيل كان يملك السفن التجارية ويسيرها في البحر و الأمر الأخر أنه كان يؤجر هذه السفن ولكن لكثرة أسفاره التجارية قال هذه العبارة لقريش ، وعلى الرغم من حملة أبرهة الحبشي على مكة في قصتها المعروفة لكن العلاقات التجارية بقيت مستمرة بين الطرفين بعد عام الفيل ومما يدل على ذلك عندما جاء الإسلام وذهب المهاجرون الى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب (عليه السلام) وبأمر من رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) أرادت قريش استرداد المهاجرين وقالت أنهم خارجين عنها وبعثت عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص مع هدايا ثمينة الى نجاشي الحبشة ، وهذا العامل كانت نتيجة علاقات سابقة قوية بين الطرفين وعلى ما يبدو أنه كانت لهم مناطق قوية معهم و أن التجارة لها مردود اقتصادي جيد عليهم وهذا يعكس لنا قوة العقلية التجارية القرشية في المحافظة على المصالح وهناك العديد من الشخصيات القرشية التي تاجرت مع الحبشة كان من أبرزهم هاشم بن عبد مناف و أخيه عبد شمس الذي عقد الإيلاف مع النجاشي وكذلك عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد (٦٩) وهناك عدد من المواد المهمة التي كانت تنقلها القوافل التجارية القرشية يأتي في مقدمتها الادم وهي الجلود ومن أبرزها الادم الكاظمي وقال ابن منظور أن هذه الجلود تبغ بأنواع معينة من الأشجار يؤخذ أوراقها وتبغ به (٧٠) وأخيرا أود أن أشير هنا أن هناك بعض الشخصيات التي لعبت دورا مهما في التطور التجاري في مكة ولكن من غير القرشيين وهم يسكنون مكة ولهم دور معروفة بها ، وان التجارة لم تكن حكرا على قريش وحدها ، وقد خرج هؤلاء بمعاملاتهم التجارية خارج حدود الجزيرة العربية فقد ذكر عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) أن النباش بن زرارة التميمي وهو من حلفاء قريش المعروفين قال " خرجنا الى الشام تجارا وعبدالله بن جدعان صبي حين خرجنا " (٧١) ومنهم سعيد بن سوادة العامري الذي كان يتاجر مع كثير من المناطق في قوافل لقريش (٧٢) واشتركت قبيلة ثقيف مع قريش في التجارة خارج مكة ومنهم عروة بن مسعود الثقفي وهو من الصحابة وقد كان يحدث قومه عندما ذهب للتفاوض مع رسول الله (صلى الله عليه واله) في صلح الحديبية يقول لهم " أي قوم والله لقد وفدتُ على الملوك كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيتُ ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا " (٧٣) ومنهم غيلان بن سلمة

الثقفي كان يشارك أبو سفيان في تجارته الى بلاد فارس وقد ورد ذكره في التجارة معهم وكان يقابل كسرى وهو الذي قال له عندما استحسن عقله " ما غذائك قال البر قال كسرى ، هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر " (٧٤) .

الخاتـمـة

بعد أتمام بحثنا الموسوم " مكة والعقلية القريشية ودورهما في التطور التجاري لقبيلة قريش قبل الإسلام " يمكننا أن نسجل جملة من النتائج المهمة :

١ـ ان موقع مكة كان له الدور المتميز في نموها وتطورها وسيطرتها عل طرق التجارة المهمة وهذا الموقع اضفا عليها الصفة الدينية كونها تضم بيت الله الحرام .

٢ـ أن هذا الموقع وأهميتهِ جعل من مكة وخلال فترة قصيرة من المدن المهمة والبارزة ولها مركز الصدارة ومكانة عالية بين القبائل العربية وأصبح أهلها يتمتعون باحترام الحكام والملوك الدول المحيطة بالجزيرة العربية .

٣ـ وهذا الموقع ساعد الزعيم البارز قصي بن كلاب بعد ان وحد قريش تحت زعامته لكي يكون القائد الأول لهم .

٤ـ وبسببه تمكنت قريش من انتزاع القيادة التجارية والدور البارز من أهل اليمن والسيطرة على الطرق المهمة والرئيسة بعد عقد الإيلاف وهذا ما أفرزته العقلية القرشية من أمور تجارية ساعدت على النمو الاقتصادي ومركز مكة التجاري وذلك كله انعكس على التطور الحضاري لمكة والتنظيمات الدينية والسياسية والمالية وتعدد الوظائف الأخرى وهذا كله من أبداع هذه العقلية الفذة .

٥ـ ساهمت العقلية القرشية في ابتداع مورد جديدة لتعزيز مكانتها التجارية مع المناطق المجاورة .

٦ـ كان الإيلاف من أبدع ما أنتجته هذه العقلية والذي ساهم بشكل كبير في تطوير وتوطيد هذه العلاقات .

٧ـ أن التجارة لم تكن حكرا على قريش وحدها وإنما هناك تجار من عدد غير قليل من القبائل الأخرى ولكن يسكنون مكة ولهم تجارة معهم وشاركوا بشكل فاعل في تنمية التجارة القرشية .

٨ ـ حرصت قريش كل الحرص على ديمومة علاقاتها التجارية مع القبائل العربية في المناطق التي تمر بها تجارتها .

٩ـ بقيت قريش على الحياد بين المعسكرين الروماني والفارسي حفاظا على مصالحها .

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : القران الكريم

ثانيا : قائمة المصادر والمراجع :

١ ـ قبيلة قريش : اختلف اللغويون في تفسير واشتقاق كلمة قريش وذكرت عدة روايات حول ذلك ، فهي تعني التقريش ، أي بمعنى التكسب والتجارة وقيل هي من التقرش أي التفتيش عن حاجة المحتاجين وسدها ، وقيل هي ارتفاع الهمة ، وهي من التجمع وأنها سمين بذلك لتجمعها للتفاصيل أكثر ينظر ، ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) ، لسان العرب ، (قم المقدسة ، أدب الحوزة العلمية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) ، جـ ٣ ، ص ٨٥ ؛ عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (الإسكندرية ، ١٩٦٧م) ، ص ٤٦٧ .

٢ـ قصي بن كلاب : وهو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لوي بن غالب بن فهر بن النظر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان واسمه زيدا وإنما سمي قصي لابتعاده عن قومه وذهابه مع أمه الى بلاد الشام وكذلك سمي مجمعا لأنه جمع قبائل قريش وانزلها مكة ، ينظر : ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م) ، الطبقات الكبرى ، (بيروت ، دار صادر ، بلات) ، جـ ١ ، ص ٦٧ ؛ الحلبي ، ابن إدريس (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) ، السرائر ، (قم المقدسة ، مؤسسة النشر الإسلامي ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) ، جـ ١ ، ص ٤٦٠ .

٣ـ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ / ٩٢٢م) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق ، لجنة من العلماء الأجلاء ، (بلام ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بلات) ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ .

٤ـ احمد أمين ، فجر الإسلام ، (بيروت ، ١٩٦٩م) ، ص ١٢٠.

٥ ـ إبراهيم بيضون ، الحجاز والدولة الإسلامية دراسة في إشكالية العلاقة بالسلطة المركزية في القرن الأول الهجري ، (بيروت ، ١٩٨٣م) ، ص ٦٥ .

٦ـ المرجع نفسه ، ص ٦٨ .

٧ ـ المرجع نفسه ، ص ٦٨ .

٨ ـ المرجع نفسه ، ص ٦٥ .

٩ـ الازرقي ، أبو الوليد محمد بن عبدالله (٢٢٣هـ) ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق ، رشدي الصالح ، (بيروت ، ١٩٦٩م) ، جـ١ ، ص ٥٩ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨.

١٠. الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨.

١١ ـ اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن جعفر(ت ٢٩٢هـ / ٩٥٠م) ، تاريخ اليعقوبي ، (بيروت ، دار صادر ، بلات) ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ .

١٢ ـ الثعالبي أبو منصور عبد الملك ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، (القاهرة ، ١٩٦٥م) ، ص ١١٥ .

١٣ . ؛ جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ، (بغداد ، مكتبة النهضة ، ١٩٧٦م) ، جـ ٧ ، ص ٢٨٧ .

١٤ ـ ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ) ، السيرة النبوية ، تحقيق : محمد محي الدين ، (القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م) ، جـ١ ، ١٢٥ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٧٥ .

١٥ ـ الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٨٣ .

١٦ ـ الحميري ، محمد بن عبد الله (ت ٩٠٠هـ) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، (بيروت ، ١٩٧٥م) ، ص ١٩٤؛ احمد بن محمد الخضراوي ، العقد الثمين في فضائل البلد الأمين ، (النجف الاشرف ، ١٩٥٨م) ، ص ١٨ .

١٧ ـ سورة الأعراف ، الآية ١٨٨.

١٨ . الطبطبائي ، محمد حسين ، الميزان في تفسير القران ،تقديم ، جواد أملي ، (بيروت ، دار الأضواء ، ١٤٢٠هـ) ، جـ ٨ ، ص ٥٦٨، ٥٦٩ .

١٩ ـ المرجع نفسه ، جـ ٨ ، ص ٥٦٩ .

٢٠ ـ سورة البقرة ، الآية رقم ٢٠٧ .

٢١ ـ سورة التوبة ، الآية رقم ١١١ .

٢٢ ـ عبد الرحمن بن عوف وقيل بن عبد عوف ، روى عن النبي محمد (صلى الله عليه واله) وعنه أولادهُ وابن عباس ، مات سنة ٣٠هـ ، وقيل سنة ٣١ ، ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن بن محمد

(ت ٦٣٠هـ) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، (بيروت ، دار الكتاب العربي ، بلات) ، جـ ٣ ، ص ٣١٣ .

٢٣ ـ الكحلاني ، محمد بن إسماعيل (ت ١١٨٢هـ ، سبل الإسلام ، تحقيق ، محمد عبد العزيز ،

(مصر ، مطبعة الباب الحلبي وأولاده ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) ، جـ ٣ ، ص ١٥٤ .

٢٤ ـ سعد بن الربيع الأنصاري ، هو من أهل المدينة أخا رسول الله (صلى الله عليه واله) بينه وبين عبد الرحمن بن عوف عندما قدم مهاجرا ، العيني ، عبدالله بن إسماعيل (ت ٨٥٥هـ) ، عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري ، (بيروت ، دار أحياء التراث ، بلات) ، جـ ١١ ، ص ١٦٤ .

٢٥ ـ الشافعي ، أبو عبدالله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ) ، كتاب الأم ، (بيروت ، دار الفكر للطباعة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

٢٦ ـ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٣٧ .

٢٧ ـ ابن حبيب ، أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) ، المنمق من أخبار قريش ،(بلام ، بلات) ، ص ٤٥ ؛ الثعالبي ، ثمار القلوب ، ١٠ .

٢٨ ـ البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) ، صحيح البخاري ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ، جـ ٤ ، ص ٢٤٢ ؛ العيني ، عمدة ، جـ ١٧ ، ص ٣ .

٢٩ ـ نخيلة : وه موضع في البادية بالقرب من اليمامة ، البكري ، أبو عبدالله الأندلسي (٤٧٨هـ) ، معجم ما استعجم من البلدان والمواضع ، تحقيق : مصطفى السقا ، (بيروت ، مطبعة عالم الكتب ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م) ، جـ ٤ ، ص ١٣٠٥.

٣٠ ـ المحقق الاردبيلي (ت ٩٩٣هـ) ، زبدة البيان ، تحقيق : محمد باقر ، (طهران ، المكتبة الرضوية ، بلات) ، ٣٠٥ .

٣١ ـ ابن شهر أشوب ، مشير الدين أبو عبدالله (ت ٥٨٨هـ) ، مناقب آل أبي طالب ، (النجف الاشرف ، المطبعة الحيدرية ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) ، جـ ١ ، ص ١٦٥ .

٣٢ ـ ابن حبيب ، المحبر ، ص ١٦٢ .

٣٣ ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) ، تاريخ ابن خلدون ، كتاب العبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السطان الأكبر ، ط٤ ، (بيروت ، دار أحياء التراث ، بلات) ، جـ٢ ، ص ٣٣٥ .

٣٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

٣٥ ـ الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ، جـ١ ، ص ٣٦٧ .

٣٦ ـ ينظر تفاصل ذلك عند ، ابن هشام ، السيرة ، جـ١ ، ص ١٨٧ ؛ ابن حبيب ، المنمق ،ص ١٤٥

٣٧ ـ هاشم بن عبد مناف : بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن اليأس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، النووي ، محي الدين .(ت ٦٧٦ هـ) ، المجموع ، (دار الفكر ، بلات) ، جـ١ ، ص ٧ .

٣٨ ـ جواد علي ، المفصل ، جـ٦ ، ص٥ .

٣٩ ـ الازرقي ، أخبار مكة ، جـ١ ، ص ١٠٠ .

٤٠ ـ المصدر نفسه ، جـ١ ، ١١٥ .

٤١ـ البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) ، انساب الاشراف ، تحقيق ، محمد محمد تامر ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠١١م) ، جـ ١ ، ص ٥٧ .

٤٢ ـ سورة قريش ، الآيات ، ١، ٢ .

٤٣ ـ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ٤٩٣ ؛ بيضون ، الحجاز ، ص ٧٠ .

٤٤ ـ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٧٥ .

٤٥ ـ ابن حزم ، احمد محمد بن علي (ت ٤٥٦هـ) ، جمهرة انساب العرب ، (مصر دار المعارف ، ١٩٦٢ م) ، ص ١١٨ .

٤٦ ـ البلقاء : وهي كرقطاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان ، فيها قرى ومزارع واسعة وبجود حنطتها يضرب المثل ، ياقوت الحموي ، شهاب الدين (٦٢٨هـ) ، معجم البلدان ، (بيروت ، ٢٠١١م) ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

٤٧ ـ ابن حبيب أ المنمق ، ص ٥٣ .

٤٨ ـ الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) ، الأغاني ، (بيروت ، مطبعة دار الفكر ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م) ، جـ ٦ ، ص ٩٥ .

٤٩ ـ قبيلة طي : وهو طي بن أدد واسمهُ جُلهُمةً وإنما سميه طي لأنه أول من طوى المناهل ، وهم قبائل كثيرة منهم بنو جديلة ، وبنو تيم وغيرهم ، وفيهم عدد من الشخصيات المعروفة من أبرزهم حاتم الطائي وابنهُ عدي بن حاتم الطائي ،ينظر ابن الكلبي ، أبي المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ) ، جمهرة النسب ، تحقيق : د . علي عمر ، (القاهرة ، مكتبة الثقافة ، ٢٠١٠م) ، جـ٢ ، ص ٧٣ ؛ ابن دريد ،أبي بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ) ، الاشتقاق ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط٢ ، (بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ، جـ٢ ، ص ٣٨٠ .

٥٠ ـ الأصفهاني ، الأغاني ، جـ ١٢ ، ص ٤٦ .

٥١ ـ جواد علي ، المفصل ، جـ ٧ ، ص ٢٩٥ ، ص ٢٩٦ .

٥٢ ـ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٢ ، ص٣٦ .

٥٤ ـ المصدر نفسه ، جـ١ ، ص ٥٧ .

٥٥ ـ ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

٥٦ ـ المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

٥٧ ـ الازرقي ، أخبار مكة ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

٥٨ ـ ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ) ، تاريخ دمشق ، تحقيق : علي شيري ،

(بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م) ، جـ٢٨ ، ص ٣٣٢ .

٥٩ ـ المصدر نفسه ، جـ ٣٨ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

٦٠ ـ الأصفهاني ، الأغاني ، جـ ٨ ، ص ٣٣٠ .

٦١ ـ الفالوذج : وهو نوع من الطعام الحلوا ، مركب من ثلاث أشياء ، لباب البر وسمن البقر ولعاب النحل (العسل) ، ويعرف بالفارسية (بالدزة) ، ينظر ، القاضي ، النعمان المغربي (٣٣٦هـ) ، دعائم الإسلام ، (مصر، دار المعارف ، بلات) ، جـ ٢ ، ص ١١١ .

٦٢ ـ المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٣٨ .

٦٣ ـ المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٤٦ .

٦٤ ـ المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٤٦ .

٦٥ ـ البلاذري ، فتوح ، جـ١ ، ص ٤٤٩ ؛ جواد علي ، المفصل ، جـ٤ ، ص ١١٥ .

٦٦ ـ السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ١٧٩ .

٦٧ ـ القتبُ : وهي أحداق الجمال ، وأكثرهم قتبا ، رجل كثير التجارة في البر والبحر ، ينظر ، ابن فارس ، أبو الحسن احمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : د. عوض مرعي وفاطمة محمد أصلان ، (بيروت ، دار أحياء التراث ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ، جـ ٥ ، ص ٥٩ .

٦٨ ـ ابن حبيب ، المنمق ، ص ٢١٧ .

٦٩ ـ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ١ ، ص ٧٥ ؛ الأصفهاني ، الأغاني ، جـ ٩ ، ص ٥٥ .

٧٠ ـ ابن هشام ، السيرة ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن منظور ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ .

٧١ ـ الازرقي ، أخبار مكة ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .

٧٢ ـ المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .

٧٣ ـ الحراني ، ابن شعبة ، تحفة العقول ، تحقيق : علي اكبر غفاري ، (قم المقدسة ، مؤسسة النشر الاسلامي ، ١٤٠٤هـ)، ص ٤٦٥ .

٧٤ ـ العيني ، عمدة القارىء ، جـ ١٧ ، ص ٢٠٣ .